محاولات إسرائيلية لتشويه المجتمع الفلسطيني

عدلي صادق
كاتب وسياسي فلسطيني

لم يعد المحتلون الإسرائيليون يكترثون للسلطة الفلسطينية وقيادتها ولا يأبهون إلى كل ما يقوله محمود عباس شجباً للتطبيع. الحقيقية هناك العديد من الأسباب التي تفسّر ذلك من بينها أنه هو الذي أضعف نفسه بنفسه، عندما تخلص من الحيثيات السياسية والدستورية للنظام الفلسطيني، فأصبح بلا منظومة وبلا نظام، بالمعنى المعروف والشروط المعروفة في الاجتماع السياسي ونظرية الدولة. فما لديه، هو محض حاشية صغيرة، لا تمتلك وزنا في المجتمع. وربما من بين هذه الأسباب أيضا، أن عباس أسهم بنفسه في محاولات تشويه صورة الشعب الفلسطيني، ما استحق عدم التعويل عليه، بالتالي بدأت الآن عملية الاستفادة من تفوّهاته التي شوّهت المجتمع الفلسطيني، دون الإشارة إلى أن الرجل عندما كان يفاخر بأنه، على سبيل المثال، وجه أجهزته الأمنية لتفتيش حقائب التلامذة في المدارس، لكي تنتزع منها السكاكين؛ كان قصده التأكيد على حرصه الشديد على أمن إسرائيل!

في عددها يوم الثلاثاء 27 أكتوبر نشرت صحيفة "جيروزاليم بوست" الإسرائيلية تحليلا مطوّلا عن المجتمع الفلسطيني كتبته ميلودي سوشاريفيتش، وهي مستشارة إسرائيلية ـ ألمانية لنتنياهو ولوزير الحرب في الشؤون الخارجية والاستراتيجية والاتصالات، تحدثت فيه بأسلوب الصحافة الاستقصائية عن "تطرف المجتمع الفلسطيني وقناعته بالعنف وبجماليات الموت على دربه"!

كان محمود عباس في لقاءين مع التلفزيون الإسرائيلي يشرح، وكل ما شرحه لم يكن صحيحا، أن الأمن الفلسطيني انتزع من حقائب التلامذة الصغار العشرات من السكاكين في يوم واحد ومن مدرسة واحدة لأنه يريد أن يحمي الإسرائيليين. فهو أبرع منهم في حمايتهم حسب قوله. ولا يزال الفلسطينيون يستعيدون الشريط عبر وسائل التواصل، ويدققون في ابتسامته الموحية بإعجاب كبير بالنفس، وهو يروي روايته، بكل ما عُرف عنه من ثقل الظل والإيحاء بالحنكة.

كانت المذيعة الإسرائيلية التي تُجري اللقاء معه، تتظاهر بالتقبل الحسن لما يقول، كمن يشجعه على الاسترسال، مدركة أن الرجل ضحل ولا يعرف ما هو المجتمع، أي فاقد للمعرفة بالأبعاد الاجتماعية لما يقول، ولا يعي أن ما يقوله يسيء للأسرة الفلسطينية وللمدرسة الفلسطينية وللمعلم الفلسطيني، وبالمحصلة للمجتمع الفلسطيني كله.

وهذا صحيح تماما لأن الرجل أصلا في شغل وظيفة الرئاسة، يعيش حياة منزوعة الدسم بالمطلق اجتماعيا، ولا تنفرج أساريره إلا عندما يسافر أو يحضر مسابقة غنائية أو يرتب لنجليه وساطة مع رأس نظام عربي. فهو لا يُرى في مجلس عزاء في الضفة، ولم يزر بقايا أسرة تعرضت للحرق في منزلها بأيدي المستوطنين. السكرتاريا في مكتبه تبادر بين حين وآخر من تلقاء نفسها، إلى ترتيب مكالمات انتقائية لكي يتقدم بتعزية تستغرق دقيقة، بقصد خلق نوع من الممارسة الاجتماعية له عند النوائب.

اليوم، يتعامل الإسرائيليون معه بأسلوب "من فمك أدينك". فهو لم يستطع أن يفهم فكرة بسيطة، وهي أن من يصنعون السلام أو يحاولون صنعه يكونون أصلا قد خاضوا حربا، وفي الحرب، يَحدث القتل المتبادل.

وفي حرب الفلسطينيين ضد المحتلين الإسرائيليين، كان القتل الإسرائيلي للفلسطينيين والعرب، أكثر من مئة ضعف القتل الفلسطيني والعربي للطرف الآخر. لكن عباس، الوحيد، من بين كل الذين قفزوا إلى مواقع القيادة في حركات التحرر على مرّ التاريخ؛ الذي جعل كفاح شعبه المسلح، وهو في الجوهر دفاع عن النفس، إرهابا مذموما بأثر رجعي، بل هو يزيد وفي ذهنه أنه سيثير الإعجاب دوليا، فيقول إنه لا يحب السلاح ولم يحمله. وكأن الرجل فيلسوف وصاحب أفكار، أو زاهد متبتل من شاكلة المهاتما غاندي، لا يحتاج إلى السلاح للدفاع عن نفسه، أو كأنه مفكر مبدع، سلاحه العقل والقلم. فهو لا يكره السلاح ولا يعرفه، لكنه لا يقول من يحب وماذا يعرف!

بسبب هذا المنطق، تستهل مستشارة رئاسة الوزراء ووزارة الحرب، مقالتها الطويلة بجملة سخيفة واستعلائية ومجافية للمنطق، تقول فيها "يمكن لطفل فلسطيني أن يذهب إلى مدرسته، عبر شارع يحمل اسم 'أبوجهاد' الذي خطط لعملية اختطاف حافلة، أسفرت عن مقتل 38 إسرائيليا، من بينهم 13 طفلا، ويمكن أن يقضي الطفل يومه التعليمي في مدرسة تحمل اسم مؤسس حماس أحمد ياسين، وينهي اليوم في مركز شبابي يحمل اسم الإرهابي 'أبوإياد' المسؤول عن قتل الرياضيين الأولمبيين الإسرائيليين في ميونخ"!

اللافت هنا، أن المستشارة الألمانية الإسرائيلية تحاول بدءا، تحميل الطفل المسؤولية عن اسم الشارع الذي مرّ منه، واسم المدرسة التي يتعلم فيها، وتعلل ذلك بذكر اثنتين مما تعتبرهما فظائع ارتكبها فلسطينيون، ومجموع القتلى في الحادثتين، لا يصل إلى سبعين. لكنها في سياقها الديماغوجي، تتكتم على مجازر نفذتها إسرائيل ببشاعة، قبل كل حادث وبعده.

ولكي لا نذهب بعيدا، تتجاوز عن حقائق الخسائر في الأرواح، ناهيك عن الجرحى والمسجونين في انتفاضة الأقصى التي اندلعت في العام 2000 واستشهد خلالها من المدنيين الأبرياء 4464 أكثر من نصفهم من الأطفال.

أما الشيخ أحمد ياسين، مؤسس حماس، فإن ما جرى في واقعة قتله بنذالة يمكن أن تعرض على سكان الكوكب الأرضي كله، مع سؤال: هل يقبل أي إنسان، أن تتربص طائرة حربية حديثة، لرجل كبير السن ومقعد، يستخدم كرسيا متحركا، لتقصفه عندما يخرج من صلاته في المسجد، فتحوله إلى فتات؟ ويمكن أن يبدأ استطلاع الرأي من مراكز المجرمين والمتعصّبين الذين سيكون جوابهم أن المُقعد لا تستهدفه طائرة قتال لكي تحوله إلى أشلاء.

وعلى الرغم من ذلك، يتقمص المحتلون دور الضحية ويتحدثون عن مظلوميات، ولأنهم استنفدوا أغراضهم من رئيس السلطة، تحولوا إلى الاستفادة من تفوّهات الترضية التي أسمعها لهم، وقد جاء الوقت للاستفادة منها واتخاذها براهين على "عدوانية" المجتمع الفلسطيني، الذي يُعلم أطفاله حمل السكاكين، تحفزا لطعن المستوطنين "المسالمين"!

وتستطرد المستشارة شارحة، فتقول "إن كل طفل فلسطيني يبلغ من العمر 12 عاما يدعو ربّه أن يصبح شهيدا". وهنا تستغل المستشارة براءة الأطفال في تعبيراتهم التي لا شك أنها تُعلّي من مكانة الشهيد المغدور، وتتناسى أن نسبة كبيرة من سكان الضفة وغزة، أصبحت بسبب فساد السلطتين وفشلهما، تتمنى أن تنفتح سوق العمل الإسرائيلية، لكي يعود العاملون القدامى إلى مراكز عملهم، ومعهم عاملون جدد.

يفترض أن يستفيد الفلسطينيون من التقرير أو التحليل الذي نشرته "جيروزاليم بوست" الثلاثاء، لأخذ العبرة والتنبه إلى ضرورة إعادة النظر في اللغة المستخدمة، التي يوحي أكثرها بأن المجتمع الفلسطيني مشتل لصناعة التطرف والحث على العنف وتجميل الموت. فالكاتبة تقول "يتلقى الأطفال الفلسطينيون في سن مبكرة ثقافة الموت الإسلامية الاستشهادية، التي تحفزها أصوات معادية للسامية، على غرار غوبلز (وزير الدعاية النازية) وتلك دعاية تثير كراهية لا رجعة فيها تجاه اليهود وإسرائيل".

هم يقولون هكذا، ما يجعل الفلسطينيين بالضرورة، أحرص على وقف الخطاب المبالغ فيه، والتركيز على وحشية وعدوان الطرف الآخر، وعلى المظلومية الفلسطينية، والتنبه إلى ترف الخطابة من فوق المنابر، وتحويل الصياغات إلى صيغ دفاعية، وإسكات الأصوات المتخلفة التي تتحدث عن زوال إسرائيل في العام القادم.

لقد أراد عباس استرضاء إسرائيل، بتشويه المجتمع وتدمير مؤسساته، وحان الوقت لإنكار "أفضاله" عليهم وجعل تفوهاته حجة على شعبه!

على الرغم من ذلك، فإن مشكلة المحتلين لا تزال قائمة تلخصها حقيقة واحدة، وهي أن إسرائيل لو طبّعت مع العالم العربي كله، عاصمة عاصمة وبيتا بيتا، فلا قيمة لذلك طالما أن هناك ستة ملايين فلسطيني موجودون على أرضهم، ومحرومون من حقوقهم، ولا يزالون بلا حل!

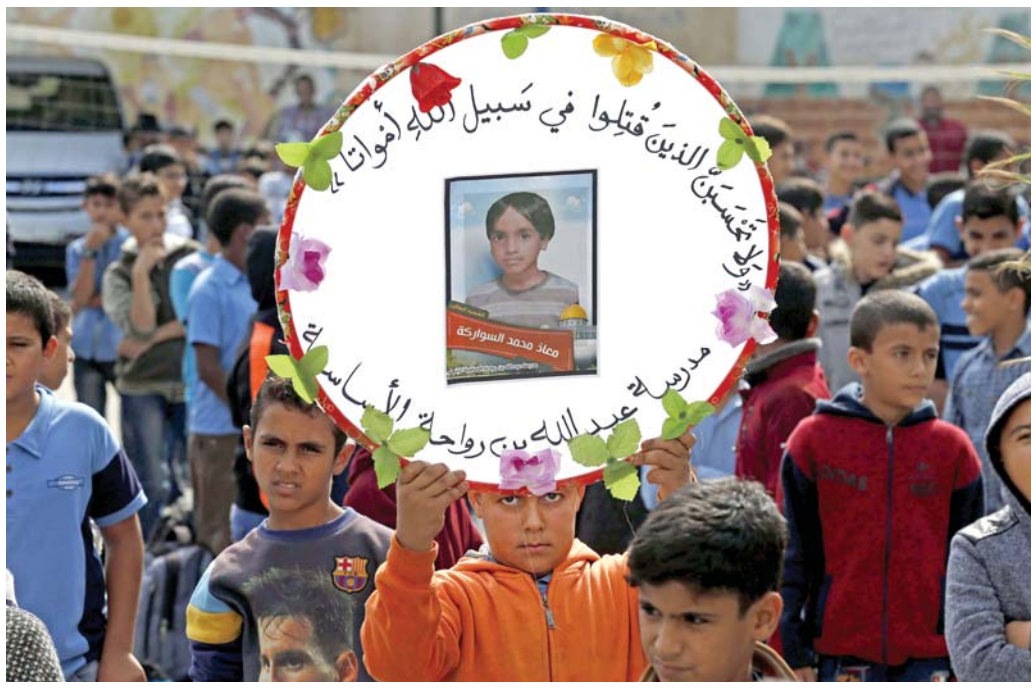

الإسلام السياسي وماكرون.. حرب من أجل عيون أردوغان

الحبيب الأسود
كاتب تونسي

يسعى الإسلام السياسي بكل الوسائل المتاحة إلى أن يجرّ الإسلام الشعبي إلى حروبه وصراعاته، وآخرها حربه على فرنسا التي اندلعت منذ أيام، لهدفين أساسيين تقف وراءهما تركيا: الأول، استعراض قوة أردوغان ونفوذه في العالم الإسلامي وخاصة في المنطقة العربية، والثانية تتعلق بخلط الأوراق في ما يتعلق بحملة مقاطعة البضائع التركية وتحويلها إلى حملة لمقاطعة البضائع الفرنسية من خلال محاولات رخيصة للتلاعب بمشاعر البسطاء من المسلمين غير المؤدلجين، وغير المدركين لحقيقة الموقف الفرنسي، ولا لعمليات التزوير والتزييف المتعمّدة التي نفذتها غرف جماعة الإخوان وتوابعها بهدف التجييش ضد باريس.

لقد أثبتت حادثة اغتيال مدرّس التاريخ الفرنسي صامويل باتي منتصف أكتوبر، أن الإسلام السياسي بات يمثل خطرا حقيقيا على السلم العالمي في ظل نزعته التوسعية التي يجسدها حاليا مشروع أردوغان، والتي لا تستهدف مجتمعات الدول المسلمة فحسب وإنما كذلك المجتمعات الأخرى الحاضنة لجاليات إسلامية مهمّة، وعلى رأسها مجتمعات أوروبا الغربية، ومنها فرنسا التي يعمل الإسلاميون منذ سنوات على جرّها إلى مواجهة مفتوحة في شمال أفريقيا ودول الصحراء الكبرى، إلى جانب نشاط يومي محموم لاختراق مجتمعها من الداخل.

في الثاني من أكتوبر الجاري قال الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون إن الإسلام يعيش اليوم أزمة في كل مكان في العالم، وإن على فرنسا التصدي لما وصفها بالانعزالية الإسلامية الساعية إلى إقامة نظام موازٍ وإنكار الجمهورية الفرنسية، معلنا عن سياساته ضد ما سمّاه "التشدد الإسلامي الذي يتخذ العنف منهجا له"، وطارحا مشروع قانون ضد "الانفصال الشعوري"، بهدف "مكافحة من يوظفون الدين للتشكيك في قيم الجمهورية".

في 16 أكتوبر، قام الطالب الشيشاني عبدالله أنزوروف الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، والحاصل على اللجوء إلى فرنسا، بذبح أستاذ التاريخ صامويل باتي من الوريد إلى الوريد، بدعوى قيامه بعرض رسوم كاريكاتيرية مسيئة للرسول أمام طلبته، وذلك ضمن حصة دراسية حول حرية التعبير، وهو ما أثار حالة من الهلع في المجتمع الفرنسي، ثم خرج الرئيس ماكرون ليعلن في حفل تأبين باتي في جامعة السوربون أن المدرّس قُتل بيد جبناء لأنه كان يجسّد القيم العلمانية والديمقراطية في الجمهورية الفرنسية، مشدّدا على أن بلاده لن تتخلى عن الرسوم الكاريكاتيرية، مما أثار ضده موجة من الانتقادات وحملات الاستهداف تزعمها أردوغان وأبواق الإخوان وانضم إليها بعض ممن يضعون أنفسهم في دائرة الإسلام المعتدل.

عندما قال الرئيس الفرنسي إن بلاده لن تتخلى عن الرسوم الكاريكاتيرية، كانت يقصد الكاريكاتير كعنوان للحرية في فرنسا، لا أحد يستطيع أن يجبر الفرنسيين على تغيير ثوابتهم التي كرسّوها منذ ثورتهم في العام 1789 عندما أقرت الجمعية التأسيسية أن "كل مواطن يستطيع التحدث والكتابة والطباعة بحرية"، في ثاني إعلان لحرية التعبير في العالم بعد أن تبنّت الولايات المتحدة دستورها في عام 1776، وحرية الإعلام تبناها قانون 29 يوليو 1881 الذي يزيل متطلبات الترخيص قبل البث.

يدرك ماكرون أن قيم الجمهورية لا تسمح له بالتدخل في الحريات العامة في بلادها، وخاصة حرية التعبير، وما قامت به مجلة "شارلي إيبدو" الساخرة من ترويج لرسوم نراها كمسلمين مسيئة لرسولنا الكريم، يدخل في سياق عام، حيث لم تدخر هذه المجلة جهدا في الإساءة لموسى بن عمران وعيسى بن مريم ورموز المسيحية واليهودية وبقية الديانات المنتشرة على الأرض كالبوذية والهندوسية، وهي ترى في ذلك تعبيرا عن رؤيتها للعالم والوجود، وممارسة تلقائية لحقها في التعبير عن خطها التحريري، وعن حريتها في انتقاد الأديان ضمن منظومة تتحرك من داخل المجتمع الفرنسي الذي يحترم الرأي والرأي الآخر.

علينا أن نعترف أننا أمام صراع قد يتخذ صبغة دموية، فالمسلمون عموما وخاصة في المنطقة العربية لا يزالون منفصلين عن قيم ثقافة الغرب. ورغم مزاعم الإسلام السياسي لدينا بأنه ديمقراطي ويؤمن بالحريات، إلا أنه لم يدخل بعد عصر التنوير الذي دخلته أوروبا في القرن الثامن عشر، وتأسست عليه قيم الليبرالية العلمانية والديمقراطية بوجهها الغربي الذي نعرفه، ويزعم الإسلاميون أنهم يسيرون على نهجه وهم أبعد ما يكونون عنه، بسبب عدم قدرتهم على التجاوب مع ما يصفه ماكرون بخروج الإنسان عن مرحلة القصور العقلي وبلوغه سن النضج أو سن الرشد، معرّفا القصور العقلي على أنه "التبعية للآخرين وعدم القدرة على التفكير الشخصي أو السلوك في الحياة أو اتخاذ أي قرار دون استشارة الشخص الوصي علينا".

إن مشكلتنا الكبرى هي أننا أمام قوى دينية، ورغم تراوحها بين المعتدل والمتطرف والشعبي والسياسي، إلا أنها تجتمع على أساس رفض خطاب العقل، ولا تزال ترى أن استمرار نفوذها لا يكون إلا بترسيخ ثقافة القطيع، وقطع الطريق أمام كل محاولة جدّية للاجتهاد أو الإصلاح أو التنوير وتحرير العقل من سلطة المقدس، وهو ما لا يمكن للغرب أن يفهمه وبيننا وبينه مسافة أكثر من مئتي عام لفهم علاقة الإنسان بالدين، والتي يراها هو علاقة شخصية مرتبطة بالحرية الفردية، بينما نراها نحن حالة عامّة موروثة تكرّس إيمانا جمعيا غير قابل للاختراق، وتوجب الحرب على من يتمرد عليها.

عندما قام الرئيس التركي بالتحريض على فرنسا والرئيس ماكرون، لم يكن همّه الأول هو الدين أو النبي محمد، وإنما كان ينطلق من صراعه الجيوسياسي مع الفرنسيين في شرق المتوسط وليبيا وعموما شمال أفريقيا ومنطقة الصحراء الكبرى، مرورا بلبنان، ووصولا إلى ساحة الصراع بين أرمينيا وأذربيجان. ولدى أردوغان قناعة بأن ماكرون حليف معلن لدول تعتبرها أنقرة عدوة لها، إضافة إلى موقف فرنسا الواضح منذ عقود من رغبة تركيا في الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي.

كما أن تركيا بدأت تعاني من نتائج المقاطعة العربية لسلعها، وخاصة في السعودية والإمارات والأردن والتي بدأت تتمدد إلى مصر وأجزاء من ليبيا وبعض الدول الأخرى، وعندما أطلق ماكرون تصريحاته، استغلها أردوغان في الدفع إلى حملة مقاطعة للسلع الفرنسية، من أجل التغطية على الحملة الأولى وتمييعها وتحويل الأنظار عنها، وقام الإعلام الإخواني الممول من قطر بدوره في ذلك، بهدف التلاعب بعاطفة الإسلام الشعبي ووضعه بين خيارين وهميين: تركيا المسلمة أو فرنسا المعادية للإسلام.

ورغم أن أحزاب الإسلام السياسي، التي لا تزال تعوّل على الغرب في تبني مشروعها الديمقراطي الزائف، حاولت النأي بنفسها في علاقة بالأزمة في فرنسا على الأقل من الجانب الرسمي، إلا أنها تقود المعركة من وراء الستار، وتدفع بأنصارها إلى التحرك وبقوة عبر التظاهر والمقاطعة والتجييش الإلكتروني والإعلامي ضد ماكرون، ليس دفاعا عن الرسول، وإنما من أجل عيون أردوغان الذي يعتبر معركته مع باريس معركة مصير ووجود، إما أن يكسبها فيحقق أحلامه الإمبراطورية وإما أن يخسرها فتنكسر أطماعه التوسعية.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk